ماضي الأمة وحاضرها وعلاج عليها 1 ﴿سنة اللّهُفيا لذي نَحَلوا مَنَقِبًا﴾ ولتجد لسنّة اللّهُتبدلاً ﴿أرأيت أمة من الأمم لم تكن شيئاً مذكوراً، فإذا هي بحمية كل واحد منها كوثبديعاً للنظام مقوياً لأركان شديداً البنين، نمتفيها أفناناً لزعمة بعدما تبتت أصولها ورسخت جذورها، ونفذت منها الشوكة وعلت لها الكلمة وكملت القوة، فاستعلت آدابها على الآداب وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك سابقها ومعاصريها، وأحست مشاعر سواها ما لا ممبأناً لسعادة إلا في انتهاج منها جهاد وورود شريعتها، مدبر وهو لها بدن عامل. وبعد هذا كله وهبناؤها وانتثر منظومها وتفرقت فيها الأهواء وانشقت العصا، وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها، لا يلمح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية، وهو في غيبة عن أن ضروريات حاجاته لا تنال إلا على أيدي الملتحمين معه بلحمة الأمة، وأنه أحوج إلى شد عضدهم من تقوية ساعده، وإلى توفير خيرهم من تنمية رزقه، وأخذ القنوط وحدثت فيهم قناعة التهمو الرضا بكل حال. ولئن تنبه خاطر للحق في خيال أحدهم أو استفزه داع من قلبه إلى ما يكسب مآلته شرفاً أو يعيد إليها مجداً دهباً ساو هذياناً أصيب به من ضعف في المزاج أو خلفي البنية، لصار من أقرب الأسباب لزوال نعمته ونكد معيشتة، فتغل يداه عن العمل وتقف قدماه عن السعي، بغاية العجز عن كل ما فيه خير هو صالحه، ويقصر نظره عن درك ما أتأسسلافهم من قبل، ضعفت، وعزت مذلت، وصحتهم مرضت، وأسقاماً أصعب الداء! وما أعز الدواء! وما أقل العار فينبطرقا للعلاج! كيف يمكن أستغفر الله. لو كان لها شأن يعكف عليه كما انفصل عن أخيه هو أشد أعضاءها تصالاً به، ولكن يصرف لشئون غيره وهو يظنها منشئون بنفسه، نعم، ربما التفتك لإلما هو في فطرة كل حي من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه، وهو لا يدري من أي وجه يحصلها ولا بأية طريقة يكون في فعلها، كيف تبعنا لهم بمعد موتها وما ماتت إلا بعدما سكنت وفي كل خطوة يظن أنه على مقربة من الخطوة؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه المبتهج بأحلامه، 46 أهواءها المتفرقة وتوحد آراءها المتخالفة بعدما تراكم جهلها ورأغبين، إنهلشي عسير يعين في علاجها النطاسي، ويحار فيه الحكيم البصير. هل يمكن تعيين الدواء إلا بعد الوقوف على أصل الداء وأسبابه الأولى والعوارض التي طرأت عليه، معرفة عمرها وما اعترافها فيهم متنقلاً لأحوال الوتن وعالأطوار؟ أي يمكن تلطيب بيبيعالج من أطوار العمر ثم لا تظهر إلا في طور آخر لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها؟ كلا، محدودة وعوارض حياتها محصورة، فكيف بمنير يد مداوم لة طويلة الأجل ووفرة العدد؟ لهذا يندر في أجيال وجود بعض رجال يقومون بإحياء أمة أو إرجاع شرفها وكما أن المتطبب القاصر في الأمراض تامة بشأنها وموجب اعتلالها، وما يوجد في أفرادها من المذاهب والاعتقادات، ودرجتها الحالية المناضعة، فإننا خطأ طألياً صلاحها فياكتناهي مما ذكرنا تحولا لدواءها والوجود فمن له حظ في الكمال الإنساني ولم يطمس من قلبه موضع الإلهام الإلهي؛ يجرؤ على القيام بما يسمونه تربية الأمم وإصلاح ما فسد منها، وهو يحس من نفسه نعم، وأنها تكفل إنهاض فبعدها مع الذهول واستولت الدهشة على العقول وقل القارئون والكتابتون؛ وجدت القارئ فقلما تجد الفاهم، فلا يكون منها لاسوء التأثير، فيشبهه غذاء لا يلائم الطبع فيزيد الضرر أضعافاً، فائدة الجرائد تحتنتجهم منها الرغبات لاستطلاعها مع قصر المدة وتدفق سيول الحوادث، ويظن قوم آخرون أن الأمة المنبئة في أقطار واسعة من الأرض مع تفرق أهوائها وإخلاؤها إلى ما دون رتبها بدرجات لا تحصر، ورضاها بالدون من العيش والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا من مشربها، مع هذا كله يتم شفاؤها من هذه الأمراض القاتلة بإنشاء المدارس وتكون على الطراز الجديد المعروف بأوروبا حتى تعم المعارف جميع الأفراد في زمن قريب، إنما يقوم به سلطان قوي قاهر يحمل الأمة على ما تكره أزمانا حتى تذوق لذته وتجنبي ثمرته، وموضوع كلامنا في الضعف ودوائه، فإن قالوا: يمكن التدرج مع الاستمرار والثبات؛ لولا ما يكون منطعاً لأقوياء احتلوا بدعواهم مسيلاً لأن يستنشقوا نسيم القوة، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر؟ في بعض الأفراد والاستزادة منها شيئاً فشيئاً، وكيف يبتتواستوتعلسوقها وأبعت وأثمرت؛ وبأيام سقيتوا بآيتريه غذيت، ولا ووقولها علنا غاية التي قصدت منها